

نحو أفق ممكّن لثقافة عرفانية

الشيخ شفيق جرادي

الكلمات المفتاحية: شفيق جرادي، نحو أفق ممكّن لثقافة عرفانية، التصوف، العرفان، الثقافة العرفانية.

اعتنينا الحديث حول التصوف والعرفان باعتبارهما إما مسلّكاً عملياً أو نظريّاً تمارسه جماعة أو أفراد من الناس. وانقسمت الآراء حول الاتجاه الصوفي والعرفاني من متبنٍ بلا شروط، إلى متبنٍ بتحفظ، إلى رافض أو مستمزج لهذا الاتجاه أو ذاك.

إلا أن أحداً لا يختلف مع الآخر فيما يتضمنه التصوف من غرائب وشطحات، وفيما يتضمنه العرفان من مشاكل وصعوبات غير مفهومة على مستوى البيان ومنظومات الفهم والاستدلال. إلا أن السؤال الذي بات ملحاً اليوم هو: هل يصلح العرفان ليكون ثقافة جماعة أو أمة؟

ولهذا السؤال ما يبرر، بل وما يُبرّر اعتباره إشكالية فكريّة حقيقة؛ وذلك للأسباب التالية:

1. إن العرفان بحسب ما يتحدث أهله عنه، هو تعير عن خبرة روحية ومعنوية فردية، ومن المعلوم أن ما يؤطر بالإطار الفردي لا يمكن أن يتحول إلى ثقافة؛ إذ الثقافة عبارة عن ذهنية ووجدان جمعي.. وشتان بين ما من شأنه الفردية، وما شأنه النسبة للجماعة أو الأمة.

2. إن النخبوية المفرطة التي يحملها العرفان، تنبو عن أن يكون شعبياً ومتداً لدى أواسط واسعة من الناس. وهذا من إحدى الخصائص المميزة بينه وبين التصوف؛ إذ استطاع الصوفية أن يشكلوا حراكاً شعبياً واسعاً، كما استطاعوا أن يزرعوا في الوجدان الديني العام حضوراً بارزاً وفاعلاً، مما ساهم بشكل كبير في إنتاج ما أطلق عليه إسم "الإسلام الشعبي". أما العرفان فقد حافظ على حضوره في الأوساط العالمية، وإن نقل أحياناً بعض الكرامات الخاصة بأفراد من عامة الناس ولا ينتسبون إلى طبقة العلماء.

3. إن المناقلة لتعاليم العرفان حصلت عبر وسليتين: إما المباشرة بين المرشد والمريد، وهو ما اصطلاح عليه البعض بـ"علم السنان"، أو "علم الصدور للصدور"، أو من خلال كتب خاصة أخذت صفة الكتب التعليمية من أمثال: "تمهيد القواعد"، "فصوص الحكم"، "الفتوحات المكية"، "مصابح الأنس"، و"منازل السائرين"، إلى آخره... ولا يخفى على مطلع ما لهذه الكتب من إغلاقات في العبارة والمضمون، بحيث لا يتوجّل فيها إلا أهل خاصة الخاصة. وفي أيّ من الوسليتين، فإن الأمر يصبح محصوراً بأفراد أو مجموع من الأفراد، ولا ينتقل ليتوسّع في محاضر شعبية.

وبالتالي قد يكون من الصعب على ضوء هذه الملاحظات التي مررت معنا أن يتوفّر للعرفان ابسطأً ثقافياً واسعاً.

وهذه الصعوبة في انتشار العرفان انتشاراً ثقافياً، وإن كنا نقرّها، إلا أنها لا تتعارض مع القيام بمساعٍ جدّية لتحقيق مثل هذه الغاية.

إذ الطابع الفردي والنحبوi وطريقة التعليم للمبادئ العرفانية، وإن كان من الأمور القائمة فعلاً، لكنه لا يحجب ابتكار آليات عملاًانية ليُصبح موضوع العرفان وثماره ثقافة واسعة، ولو في أوساط أهل التدين؛ إذ لا يخفى أن ما من شأن تخصصي إلا ويحمل نفس هذه الخصوصيات السالفة الذكر. فالفقه مثلاً هو اجتهاد فردي تمارسه نخبة من خواص الناس والعلماء، ويعتمد على مقررات بالغة في التعقيد، إلا أن (الفتيا) تحولت لتكون ثقافة حاضرة وبقوّة في أوساط المجتمع الإيماني.

وإذا كان العرفان هو هذا التوق والحب المتصل بالله سبحانه، فإن تأجيجه هذا الوجود الإيماني وتركيزه بشكل شرعي وموضوعي خالٍ من الأسطرة والغلو والشطحات هو من الأمور الممكنة، بل هو أمر حاصل في كثير من أوساطنا ومجتمعاتنا. أما فيما يتعلق بالإطار النظري فلقد استطاع الأدب والشعر العرفاني أن يأخذ دوراً استثنائياً في نشر الثقافة العرفانية ولأوسع شرائح مهتمة بهذا الحقل المعرفي "العرفان". كما لا يمكننا إلا الإشارة إلى التأثير البالغ الذي تركه خطاب الإمام الخميني (قده) والذي مازح فيه على الدوام بين الخلفية والمرتكزات العرفانية، وبين الأحداث السياسية والمشكلات الاجتماعية والفكيرية، بحيث صار العرفان حاضراً كوجهة ثقافية في كثير من الأمور الحياتية المعرفية منها أو اليومية. ونحن هنا، لا بد أن نضيف أنه إذا كانت الفلسفة، وهي الأعقد بين المعارف الفكرية، قد صارت مورد اهتمام وعنابة لطرحها عبر برامج للأطفال ولعامة الناس من المتعلّقين والراغبين بتعلّمها، فمن باب أولى أن نعتبر إمكانية تعليم العرفان بطريقة مبسطة وسهلة، حقاً مشروعاً ومتاحاً. ولا أجد من شاهد أوضح على صحة ما أقول أكثر من المضامين العرفانية العالية التي تحملها النصوص الإسلامية من آيات وأدعية وبعض الأحاديث، والتي كان وما زال انتشارها واسعاً، وهي لا تحتاج منا سوى بعض التوسيع... وللحديث صلة.